هوامش

يواصل عدد من العلماء أعمالهم في منطقة تُدعى كان ماتا، في منطقة كتالونيا، مكتشفين ما لا يقل عن 70 ألف قطعة أحفورية، تعود إلى الفترة بين منتصف العصر الميوسيني وأواخره

وجد الفريق نوعاً جديداً من أسلاف البشر القدماء (ناشونال جيوغرافيك)

كان ماتا

أحافير عمرها 12 مليون عام قرب برشلونة

خالد فرحات

على بعد 30 ميلاً شمال غرب برشلونة، وفي مكان أقل ترحيبًا من غيره بسبب رائحته النتنة، تستمر أعمال التوسعة لمكب النفايات على قدم وساق، في «كان ماتا»، وهو مكانٌ لأكبر مكب نفاياتٍ في منطقة كتالونيا في إسبانيا، وتحتوي تُربتها على مجموعة واسعة من الأحافير تعود لكائنات عاشت قبل 12 مليون سنة.

ويستغل علماء الآثار مشاريع التوسعة المستمرة للمكب في البحث عن الحفريات. ومنذ عام 2002، جمع فريق من المعهد الكتالوني الوطني للأحافير ما لا يقل عن 70 ألف قطعة أحفورية، تعود جميعها إلى فترة انتقالية مهمة من منتصف العصر الميوسيني إلى أواخره، عندما أصبحت الغابات المطيرة شبه الاستوائية في المنطقة أكثر جفافًا وتوسعت الأراضي العشبية.

من بين الأحافير المكتشفة، وفق موقع «ناشونال جيوغرافيك»، وحيد القرن والغزلان والخيول وأشباه الماموث وغيرها، كما عثروا أيضا على متحجرةٍ للباندا العملاقة، وهي من الأسلاف الأوائل للباندا التي نعرفها اليوم، بالإضافة إلى أقدم سنجاب طائر، والآلاف من بقايا طيور وبرمائيات وزواحف عاشت في الحقبة الميوسينية. لكنَّ ذلك ليس أعظم ما عُثر عليه، فقد عثر فريق التنقيب على أحافير جديدة لكائناتٍ من أنواع الرئيسيات، لم يُعثر على مثلها من قبل في أي مكانٍ آخر، منها واحدٌ من أكثر الهياكل العظمية اكتمالًا، يعود إلى قردٍ من فصيلة القرود العليا أطلقوا عليه اسم «باو»، وهياكلَ لأشباه البشر (hominoids)، وأسلاف قردة الجيبونز (Gibbons)، التي تعود لفصيلة القرود العليا أيضًا، بما في ذلك إنسان الغاب والغوريلا والشمبانزي. وبحسب العلماء، كان هناك العديد من أنواع البشر الذين عاشوا في أفريقيا، إلا أنهم هاجروا إلى آسيا وجنوب أوروبا في العصر الميوسيني المتأخر.

كانت الظروف المناخية في جنوب أوروبا ملائمة لتهاجر إليها الحيوانات من أفريقيا منذ ملايين السنين، حيث عثر على العديد من الرواسب الأحفورية في أماكن متفرقةٍ من القارة، وقد ساعدت تقلبات التربة المستمرة على حفظ هذه الأحافير في أعماقٍ قريبة من السطح، ما جعل من المنطقة بأكملها مصدرًا غنيًا بها، وأُدرج موقع كان ماتا على خرائط التنقيب منذ أربعينيات القرن الماضي، عندما عُثر في المكان على أسنان قردٍ، قدّر عمرها بملايين السنين. وتوالت العديد من الاكتشافات بعدها، وأدى العمل المستمر على مدار عقودٍ في الموقع أثناء عمليات التوسعة، إلى اكتشاف أربعة أنواع جديدة من الرئيسيات، تعود إلى عصور ما قبل التاريخ.

وبفضلِ هذه الاكتشافات، أصبح تأريخ العديد من أنواع الرئيسيات ممكنًا، وتساعد الأحافير الجديدة العلماء على فهم هذه الحقبة بشكلٍ أعمق. ومن خلال ما عثروا عليه من أنواعٍ جديدة، تبين لهم أن فصيلة الرئيسيات كانت أكثر تنوعًا بكثيرٍ مما هي عليه الآن. ويقول ديفيد ألبا، وهو مدير برنامج المقارنات الدولي: «كل دليل أحفوري جديد يساعد في كشف بعض أكثر الألغاز عمقًا في جنسنا البشري: من نحن؟ من أين أتينا؟ ومتى بدأنا نتشكّل؟».

فمن ضمن ما وجده الفريق نوع جديد من أسلاف البشر القدماء، أطلقوا عليه اسم «ليوسي»، ويقدر عمره بنحو 12 مليون سنة. وما أثار فضولهم في هذا الاكتشاف الجديد، أنه شبيهٌ بالرئيسيات التي عاشت في تلك الحقبة، إلا أنَّ ملامح وجهه كانت شبيهةً بملامح جنسنا البشري. ويعتقد العلماء أن هذا التشابه جاء نتيجةً للتطور المتقارب، حيث تتطور بعض الخصائص المتشابهة في كائنات غير مترابطة أو بعيدة الصلة بعضها عن بعض.

وعثروا بعدها على أنثى متحجرة عاشت بعد نصف مليون سنة من ليوسي، كانت الأنثى أصغر حجمًا ولها ملامح شبيهة بالقرود، فقد كانت عظام الرسغ وشكل جمجمتها تشبه تلك التي لدى قردة الجيبون، ويعد فهم جذور القردة العليا أمرًا مهمًا لمعرفة أصول أشباه البشر، وهي الأصناف التي نشأت بعد انفصال سلالتنا والشمبانزي عن سلفهما المشترك قبل قرابة ثمانية ملايين سنة. يقول ألبا إنَّ النسب البشري «لم يظهر من العدم»، ويوضح أنه «لذلك نحن بحاجة إلى معرفة من أين تطور بالفعل».

أسفرت أعمال التنقيب المستمرة في كان ماتا عن اكتشاف أكثر من 85 نوعاً من الثدييات التي عاشت بجانب أنواع الرئيسيات العديدة في عصور ما قبل التاريخ. كان آخر اكتشافات الفريق في الموقع هيكل عظمي لحيوان ذي حوافر طويلة ومخالب، يشبه مزيجًا بين حيوانات الكسلان والدب والحصان والغوريلا معًا، وقطة لها مخالب زائفة تشبه السيف، إلا أنَّ هذه القطة ليست من السنوريات، بل تنتمي إلى عائلةٍ من الحيوانات آكلة اللحوم انفصلت عن أسلافها منذ 40 مليون سنة.

باختصار

أصبح تأريخ العديد من أنواع الرئيسيات ممكناً، وتساعد الأحافير الجديدة العلماء على فهم تلك الحقبة بشكلٍ أعمق

■■■

كانت الظروف المناخية في جنوب أوروبا ملائمة لتهاجر إليها الحيوانات من أفريقيا منذ ملايين السنين

■■■

أدى العمل المستمر على مدار عقودٍ في الموقع أثناء عمليات التوسعة، إلى اكتشاف أربعة أنواع جديدة من الرئيسيات، تعود إلى عصور ما قبل التاريخ

وأخيراً

الطيران مع خيري منصور

معن البياري

كانت غبطةً باهظةً أحرزتُها في الساعتين ونصف الساعة، مدّة الطيران إلى الدوحة من عمّان، مساء يوم الجمعة الماضي، لمّا اخترتُ أن يرافق تحليقي في الأجواء صديقي الباقي، خيري منصور، بأن أقرأ كتابَه الذي أصدره أبناء الصديقان قبل أسابيع. وضاعف من الغبطة أن الكتاب يضم 60 مقالةً لخيري، أكثرها من وحي أسفاره وإقاماته في غير بلد، فلم تعد رحلتي طيرانا إلى الدوحة، وإنما أيضا طيرانا إلى بغداد والقاهرة وبيروت وبكين والرباط وتونس وداكا وسمرقند وصنعاء وموسكو، فوجدُتني أطوفُ مع خيري في أمكنةٍ وشوارع وميادين عديدةٍ في هذه المدن، وأجالسُه في غير مقهى فيها. كان موفّقا عنوان الكتاب «الجغرافيا الحزينة .. نصوص في نوستالجيا الأمكنة» (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2021). غشيني، في أثناء هذا الارتحال مع خيري الذي لم يغب يوما عن وجداني منذ سافر إلى الأبدية، رحمه الله، (سبتمبر/ أيلول 2018)، أسىً مالحٌ، بل إن دمعتين كادتا تطفرن من عيني، لولا أنني انتشلتُني من الاستغراق في الكتاب إلى نظراتٍ، من النافذة المجاورة مقعدي، من العلوّ الذي أنا فيه إلى أرضٍ تحت بلا جغرافيا ظاهرة. وأظنّ ذاك الأسى قد جاءني لأن كثيرا مما كنت أقرأ قرأتُه سابقا لما توزّع منشورا في الصحيفتين الأردنية واللندنية والدوريتين القاهريتين، في بعض التسعينيات وما بعدها. أما أن الأسى جاء مالحا فربما لأمريْن: أن كثيرا من هذا الكثير الذي أقرأ سمعتُ أحاديث غزيرةً من خيري عنه، فتخيّلتُني يجالسني خيري في المقعد الفارغ بجانبي في الطائرة، يحكي لي، مرّة، مضافةً عن مشاهداتٍ (وأصدقاء) في مدنه وأمكنته. وأنني أقع، في سطرٍ من نصوص هذا الكتاب المثقل بالحذاقة، عليّ، لمّا يتحدّث خيري عن زيارته الثانية إلى الرباط، فلا أكون، وكذا جبرا (إبراهيم جبرا) ومحسن (الموسوي)، فيها.

«سبقنا خيري، لكنه ترك إرثا من جمال الكلمات ..»، صحيحة هذه قولة زهير ماجد في تقدمته الكتاب. والجميل في النصوص الستين، المضمومة بين الغلافين، أنها حرّة، طلقة، في طوافها ليس بين أمكنة وعواصم ومدن ومقاهٍ وشوارع، وإنما أيضا بين ثقافات وحضارات، بين ماضٍ وراهن، وعتيق وجديد، فخيري ليس سائحا عندما يزور مدينة، أول مرة، أو يعود إليها، وإنما كاتب فاحص كاشف، وأحيانا تجده يفتش عنها هي. مثالا، لما عاد إلى بيروت، بعد سبعة عشر عاما من غياب عنها «لم أجدها فيها، فتشت عنها في المقاهي والشوارع ومداخل العمارات وأكشاك الكتب، وحتى في وجوه المارّة، لكنني لم أجدها». وأكثر ما يبدع فيه انصرافه من رداءة لحظة راهنة إلى لحظة سالفة في المكان، تشحنه بقوة، بتماسك يتوسله. أولى مقالات الكتاب عن بغداد التي سكنت خيري، على ما كتب زهير محقا، وهي «الناي في وجه العصا»، كما رآها في واحدة من مجازاته الوفيرة عنها. وإذا كان خطأ أن الكتاب خلا من تأريخ كل مقالة فيه، فإنك لن تخطئ في حدسك أن خيري، على مبعدة سنوات قليلة من مغادرته بغداد في صيف 1990، كتب ما تقرأه هنا «... ولأعترف بدون مواربة أنني اكتشفت، بل أعدت اكتشاف حقيقةٍ ناصعة.. عدم قدرتي على الحياة بعيدا عن بغداد، فكل أشكال الإقامة خارجها هي ضرب من العيش وليس الحياة».

> أطوفُ مع خيري في أمكنة وشوارع وميادين عديدة في هذه المدن، وأجالسُه في غير مقهى فيها

وذلك بعد أن يكتب في المقالة نفسها «كنت وما أزال أحد التفاصيل في نسيجها الحي». وفي مقاطع في غير مقالة، يتألق خيري في تعبيره الحارّ عن إقامة بغداد فيه، وعن أجواء فيها، كما مقهى حسن عجمي الذي «تنعقد في فضائه الرطب سحاباتٌ بريئةٌ من الحوار والمعارك الصغرى». وللمقاهي في نصوص الكتاب مطارح عدة، وهي يراها خيري «بوابات المدن»، بل هي قد تصلح في بلد ما «مدخلا لقراءة حياة الناس وأنماط علاقاتهم».

وإذا كانت بغداد سكنت خيري، فإن القاهرة أقامت فيه أيضا، هي التي يجب أن تكون الكتابة «منها لا عنها، وفيها لا حولها»، كما يخبرنا في نص فاتن، عنوانه «القاهرة .. ندّاهة اليتيم .. وحفيف العذارى الخالدات»، وليس النص الوحيد في الكتاب عنها، أو عن قاهرة خيري فيها، والتي يبحث عنها. و«يشتبك المكان والزمان». أما بكين التي زارها في مؤتمر الأمم المتحدة عن المرأة، فقد شاهد خيري، قبل سفره إليها ثم بعد عودته منها، فيلم «الإمبراطور الأخير»، وقد جال هناك في «المدينة المحرمة». .. فعلت شيئا من هذا لما عدت من بكين، قبل أزيد من عام، فأجدني، ليس فقط مع خيري في الطائرة، من عمّان إلى الدوحة، وإنما أيضا نشاهد الفيلم معا في الأرض التي تحتنا، ثم نستأنف كلاما كثيرا أنى له أن يكتمل.

سعر النسخة: مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 فلس**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **ديناران**، اليمن **50 ريالا**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** ◻ UK **£ 1,20**, Austria **€ 2,20**, Belgium **€ 2,20**, France **€ 2,20**, Germany **€ 2,30**, Holland **€ 2,30**, Italy **€ 2,10**, Spain **€ 2,20**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 5,00**, USA **$ 2,00**